فولتير العظيم حتى بموته

١٦٩٤ — ١٧٧٨ م

بقلم مهدي اجم الطرابلسي

ما أنا أول الذين يتحدثون اليك عن فولتير ولا آخرهم . بل أنا من هؤلاء الذين تلح على عواطفهم اشعاعات من ارواح العظماء فتبعثهم حينا راضين وآخر كارهين لينشروا ماضي هؤلاء العظماء ويتغنون بعبقريتهم ويسجلونهم في سجل الأفذاذ الخالدين .

أطل فولتير على الحياة سنة اربع وتسعين وستمائة والف فشب ورأى من حوله فساد الحكومة والبيئة فعظم عند نفسه ان يرى أفراد الشعب يتضورون جوعاً والملك والحكام ينزلون بهم أنواع العذاب عاتين جائرين . وكان كاتباً رائع الكتابة رائق الاسلوب قوي العارضة سيال القريحة سياسي المبدأ لاذع النقد . وكانت الصحف التي تنشر رسائله رائجة نافقة أكثر من غيرها ، لأن الشعب كان يقبل على كل رسالة له او كتاب فيطالعه ، فتنشيه نغمة العبارات ولحن الاسلوب فيعيد مطالعته ، فيؤثر في نفسه ، فيهيج هياجاً شديداً ، لأنه ضد الحكومة . وقد كان الشعب الباريسي يضمر لفولتير حباً شديداً حتى أضحت كلمته فوق كل كلمة ، واسمه فوق كل اسم ، وحتى أضحى رسمه زينة تحلى بها الأكاليل والتاحف ، وحتى اضحى الشعب يحص كل كلمة من كلماته تمحيصاً ويعربها ويردها الى أصلها مستمتعاً مغتبطاً بذلك .

وهكذا استأثر فولتير بقلوب ابناء وطنه وجعل من نفسه قائداً محبوباً يشير فيطاع . والشعب لم يقبل على فولتير ومؤلفات فولتير ولم يهتف له الا لنقده الملك والملكة والبلاط وما فيه ، النقد اللاذع الذي دعا الملك ان ينفيه من اجله .

كان الكونت لدلفيليه قد تكهن ان فولتير صديقه سيموت في الثلاثين من عمره ، لكن فولتير الجبار لم يكن ممن يتأثرون بتنبؤات الكهنة والمنجمين ، فاستمر لا يحيد عن سنته في النقد والفلسفة ، ولما جاوز الثلاثين كان يداعب صديقه الكونت قائلاً : «لقد خدعتك ايها الصديق بثلاثين عاماً وخدعت نفسي بالباقي»

وأخيراً لم ير الملك بداً من إخراجه عن فرنسا . وهكذا قضى فولتير حياته شريداً طريداً يتنقل من بروسيا الى انكلترا الى غيرها وقد قضى أكثر أيامه على ضفاف بحيرة جنيف في (فرنى) وغيرها حيث سالت نفسه حنيناً إلى وطنه ، فرق اسلوبه كثيراً وبرعت ديباجته .

ألف فولتير من الكتب والقصص (محمداً ، زاير ، ميروب ، عصر لويس الرابع عشر ، تاريخ شارلي الثاني عشر ، كانديد ، ميكرومواكاس ، زاديك ، القاموس الفلسفي ، ملاحظات على نظريات پاسكال) وغير ذلك من المؤلفات التي جعل بعضها قصصاً تخيل وقائعها في بلدان شرقية وعصور خالية ، فقصته (زاديك) جعل وقائعها في بلاد فارس في عصور ماقبل الميلاد ، فقارئها يرى من طرف خفي وظاهر ان فولتير ينتقد الملك والبلاط النقد الجارح الأليم .

لأضرب لك مثلاً في كتابه زاديك : « زاديك شاب غني فيلسوف هجر المجتمع الخاطىء واعتزل في قصر له في البرية ، فانه ليتجول يوماً في الغابة اذ مر به خصيان البلاط والحرس الملكي يسألونه متلهفين أرأيت كلب الملكة وحصان الملك ؟ فيقول هي كلبة لا كلب ، ولكن لم أرها ، فيكبلونه الى الحاكم فيحكم عليه

لن ترهب العقم بعد اليوم والدة ... أو يعدم الشيخ بعد الشيب أبناء
للشيخ ما يشتهيه الشيخ من عقب ... وللتيتم من الآباء ما شاء
ليتفخوا الروح فيه مثلما خلقوا ... له يدين وشقوا العين حوراء

***

قم سائل العلم إذ سوى جوارحه ... هل رام هدماً به أم رام إنشاء ؟
يشكو البطالة غادينا ورائحنا ... فهل نضيف الى أدوائنا داء ؟
أما ترى الأرض قد ضاقت بمن حملت
فثارت الحرب حول القوت شعواء ؟
حسب البرية أن الطب يكلؤها ... وأن سهم الردى يخشى الأطباء

***

يا أيها الرجل الآلي هل لك في ... ود أساقيكه ماء وصهباء
تشابه الناس عندي في المذاق وإن ... تعددد الناس ألواناً وأسماء
لأنت أسلم يا ابن الصلب عاقبة ... من أنفس ملئت حقداً وبغضاء
أقسمت أنك بين الناس أنزههم ... يداً وأطهرهم قلباً وأحشاء
حييت فيك فتى ماقال فاحشة ... يوماً ولا عاب إنساناً ولا ساء

محمود غنيم

بالجلد والنفي الى سيبيريا فما يكاد يفعل حتى توجد الكلبة والحصان فيعفو عنه ، ولكنه يحكم عليه بغرامة قدرها اربعمائة أوقية من الذهب » وهكذا يريد فولتير أن ينقد البلاط وأن يقول إن الداخل فيه خاسر مافي ذلك شك ، مدعياً كان او مدعى عليه .

لقد كان منظر فولتير يدل على غير ما يحتاج في نفسه ، فقد كان الناظر اليه يحسبه سعيداً مغتبطاً ، على حين أن فولتير قضى حياته بين عبرة مهراقة ، وزفرة مصعّدة ، بدليل عبارات تقرأ في رسائله . وكان فولتير هزيلاً ناحلاً ، وكثيراً ما كان يشكو الماً في جسمه يقول إن الأطباء لم يهتدوا اليه بعد . فكان يئن في نفسه ، فتبدو أنّته على ثغره ابتسامة عذبة هادئة تجتذب اليه النفوس ، وقد نعته فيكتور هوجو بالرجل الكئيب الباكي . وفولتير وإن كان اكثر الشعب مناصراً له فقد كان له أعداء كثيرون يتسخطون عليه ويتبرمون بكتاباته النارية الحماسية التي كانت إحدى الشرارات الرئيسية التي أضرمت نار الثورة الكبرى من بعد : فكان هؤلاء السادة يجادلونه فلا يقف عن مجادلاتهم ، ويغالبونه فلا يفتر عن مغالبتهم ، وهو مع كل ذلك لم يهن ، فهم ما كانوا ليزدادوا الا موجدة عليه ، وهو ما كان ليزداد الا استهزاءً واستخفافاً بهم .

ولما مات لويس الخامس عشر وتربع على العرش لويس السادس عشر كان فولتير في منفاه ، فاستأذن الملك الجديد العودة الى وطنه فاذن له ، ولكن بعد ان تهدده الملك وتوعده بالنفي والتشريد إن هو عاد سيرته الأولى . فعاد الى باريس برفقة كاتبه الخاص . وكانت قد سبقته اليها زوجه والمدام دنيس حفيدته التي كان يحبها كثيراً وصديقه المركيز دي فيلت ليعدوا المنزل ويهيئوا المستقر .

وفولتير اذا أتى باريس فقد أشرقت باريس وهب الناس كلهم هبة واحدة مهللين فرحين . فلما أن أقبل كانت المحطة مزدحمة بالناس حتى لا مسير . وقد أخذ مخبرو الصحف يكتبون عنه الرسائل المسهبة الطويلة ويصفونه جزءاً جزءاً نقالوا إنه أقبل وكان على رأسه قلنسوة أرجوانية صوفية . وانه كان مرتدياً برداء من الفرو المخطط ، وأنه زار صديقه الحميم القديم (دار جنتال) في شارع (اورسه) ، وأنه خرج بعد ذلك يقصد منزله ، وأن الاولاد الصغار اذ رأوا منظره الغريب أخذوا يهتفون بحياته ويصفقون ، وأنه لما انتهى الى منزله اخذ الناس يفدون عليه أفواجاً فيستقبلهم بثياب المنزل معتذراً بمرضه .

وحقاً لقد امتلأ المنزل افناؤه وحجراته وأروقته بالناس من جميع الطبقات . فكان فولتير يبسم لهم ويستقبلهم بأحسن ما يستقبل مزور زائراً ، وقد قيل إنه لم يبق أحد في باريس الا واقبل يهنئه بالعودة السالمة ويدعو له بطول العمر . وذلك مما دعاه ان يسن دستوراً للزيارة . فأمر حفيدته ان تقيم في القاعة الكبرى ففعلت تستقبل الزائرين عوضاً عنه وتعتذر لهم بمرضه الا العظماء منهم فقد كانت تقدمهم اليه فيجالسهم ساعة ثم يعود الى غرفته يتسلى بالقراءة والكتابة . وممن زاره منهم سفير انكلترا وفرانكلين الشهير وغيرهما ، لكن كان يستقبل الكل بثوب المنزل لا يخلعه الا للنساء فقد كان يجلهن . فلما زارته الكونتيس دي بارى لم يبأ ان يبدو اليها بهذا الثوب ، فلم يقابلها اولاً ، فرجت وألحت في الرجاء ، ورجاه اصدقاؤه والحوا في ذلك أيضاً ان يفعل ، فاقبل كارهاً متمنعاً ، فقال له من حوله انك تقول إن ثوب العقل خير من ثوب الجسد فماذا دهاك اليوم ؟

ولقد كان الناس يجتمعون حول منزله كل يوم فلا يزالون يهتفون به حتى يخرج الى الشرفة فيركب عجلته فيزدحم الناس من حولها ويقبل بعض المتحمسين يدفعون الناس بمناكبهم يريدون ان يحملوا العجلة فلا يتمنعون حتى يرجوهم فولتير الامتناع شاكراً ، لكن واأسفاه ! ان هذه الاستقبالات والمهرجانات أمرضته ، ولا سيما حين سمع ان صديقه (لكن) قد قضى . ولقد كان مرضه انحباس البول ، وتورم الرجلين ، وقد منع طبيبه عنه كل انسان ، وحال بينه وبين اصدقائه ، فعكف فولتير في سريره يؤلف القصص ويكتب الرسائل ، ويئن بين الحين والحين أنة لا يشك سامعها في أنها أنة عظيم .

عناية طبيب فولتير بفولتير وعنايته بنفسه بدت نتيجتها ، فأبل ونقه ، وشرع يطبع روايته التي وضعها اثناء المرض ، وسماها ـ أرين ـ وقبل أن تعرض للتمثيل جهد فولتير جهداً عظيماً في تدريب الممثلين وتعليمهم اتقان ادوارهم ، ولم تكن صحته قد عادت اليه كاملة فرماه الكد والتبذل في سريره ، فاذا الحمى تدور في جسمه ، وهذا صداع شديد يهز جمجمته ، وهذا ورم شديد في قدميه ، وانحباس موجع في كليتيه ، ثم هذا دم يخرج من رئتيه ، ثم هاهو ذا يهذي ويصرخ الصرخات الداوية : وطبيبه لم يدر أصل الداء ومنبت العلة ، فلجأ

الى الحكمة والدراية . فاستأجر ممرضة صبية جميلة اعجبت فولتير وسُر بها كثيراً . أما الصحف فكانت تملأ أعمدتها فى التحدث عنه ، فاذا أكل فولتير دوى فى أفق باريس ان فولتير قد أكل ، واذا شرب فولتير دوى فى أفق باريس أن فولتير قد شرب . ولم يزل الداء يلح به ويضعف من جسمه ومن حواسه حتى كاد لا يقدر ان يقرأ كتاباً أو صحيفة ولا أن يستوى جالساً فى سريره . لكن ماذا ؟ ها هو ذا فولتير يصح وينشط فلا دم يعتق ولا قدم تتورم ؛ وها هوذا الطبيب قد أذن له بأكل بيضة وقطعة من الخبز ، وحسو كأس من الماء ومثلها من الخمر كل يوم . وإذا عادت الى فولتير صحته فقد عادت الى الناس المسرات والأفراح . وأما الأطباء فوقفوا وقفة الحائر أمام هذا المرض العجيب وسرعة شفائه . وكان تمثيل الرواية قد تأجل ليشهده فولتير بنفسه ، فلما أن شنى حكم الأدباء والفلاسفة فيها فاعجبوا بها اعجاباً شديداً فمثلت ، ولكن فولتير لم يشهد التمثيل فقد سقط مرة أخرى وخيف أن تكون السقطة الأخيرة القاتلة . فعاده الأطباء ووصفوا له لبن أتان يتناوله فشفى بعض الشىء ، وخرج الى متنزه الشانزليزيه بعربته ، فالتف الناس من حولها هاتفين : ليعش فولتير ! ليعش فولتير ! وقد كان السعيد منهم من يحظى بشعرة من ردائه .

لكن مما يؤلم أن فولتير امسى بعد ذلك هائج البال فاسد الرأى فقد سأل أن يبدلوا الممرضة بأخرى غيرها قائلاً : انى استحيي أن اخلع ثيابى أمام تلك الفتاة ، فابدلت بأخرى . ولكن ها هوذا المرض يطل عليه زائراً مرة أخرى ، ولكن ها هوذا الشفاء يأتيه عائداً آنية .

اما الرواية (ارين) فقد مثلت ست مرات ، وفى الأخيرة تجلت عظمة فولتير وكبر نفسه وافتخر ، وقد شهدها فولتير ، فلما انتهى التمثيل قام الشباب وجعلوا يتمسحون به ويلثمون يديه ويهتفون باسمه ، ووصل الى منزله تلك الليلة وما أحسب أن أحداً وصل فى الدنيا ليلاً الى منزله وصوله .

***

أفاق الناس صباح ٢٣ أيار من سنة ثمانى وسبعين وسبعمائة وألف ، فاذا هم يتحدثون ان فولتير قد تورمت قدماه وانحدر بوله واصبح يعتق أفلاذ كبده وانه لا يرجى له شفاء .

وحقا لقد وقع فولتير هذه المرة ويئس طبيبه من نجاته ، وعاده المارشال ريشيليو ، وصف له دواء يدفع عنه الأرق فتناوله فولتير دفعة واحدة فتعقد داؤه وعز دواؤه .

أضحى فولتير بعد هذه السقطة فارغ الصبر ضيق الصدر ، هلوع النفس متلكئ الجسم ، يسب من حوله ، ويضرب ممرضته ، ويجافى حفيدته ، وينظر إلى الناس بغير العين التى كان ينظر بها اليهم . وكان يصرخ بين الحين والحين صراخاً عظيماً احتار فى تعليله الأطباء ، ولم يعرفوا الى شفائه من سبيل . وممرضته كلت وملت وأسلمته الى يد القدر إلا قليلاً . واشار عليه صيدلى ان يتشق الأفيون ، ففعل دون أن يدرى طبيبه . والافيون أنامه إنامة طويلة استفاق بعدها فاذا معدته لا تهضم اللبن الرائب . ومر به جراح شهير يدعى (ترى) وفحص مثانته وكليتيه وتوصل بحيلته وحدة ذكائه ان يفتح للبول طريقاً بواسطة أنبوب طبي . وارتفعت درجة حرارته بعد ذلك كثيراً فارقدوه فى الجليد فما افادوا شيئاً !!

واحسرتاه ! لقد فقد فولتير عقله اوكاد ! لقد اضحى يرجع الى احشائه من فيه مايخرج من أحشائه ، فكانت حفيدته تبكى كثيراً وتقبل عليه تقول : مسيو فولتير ! مسيو فولتير ! لقد كنت مثال النظافة فانظر الى اية حال مؤلمة قد صرت .

ومن الأطباء الذين اعتنوا بفولتير كثيراً ترونشين طبيبه الخاص وبلورى وتيارى . وقد بذل هؤلاء الأطباء الحكماء اقصى ماوهبوا من حيلة وذكاء لشفائه ، فخاب سعيهم وما ازدادوا الا جهلاً بالداء . ودخلوا عليه ذات ليلة فاذا هو حائل اللون ، أزرق الشفتين متصلب اليدين والقدمين ، فأخذوا يعالجونه ساعة حتى أفاق وقال : آه ! دعونى أسير الى ربى . ثم أخذ يصيح صياحاً شديداً تهتز له النفس ، وتسيل له الافئدة هولاً وجزعاً . فعلل أطباؤه صراخه بوجع شديد لا يعرفون مصدره ، وخافت الممرضة إذ رأته على هذه الحال ، وخاف الأطباء ايضاً ، ولبثوا حتى منتصف الليل يعالجونه وينضحون جسمه بالماء فما افادوه . وفى تلك الساعة المظلمة فاضت نفس عظيمة بعد أن سجلت آثارها فى سجل الخلود

قيل إن فولتير مات مسموماً وأن يداً لم تعرف بعد قد دست له السم ، وقال الاطباء نعم لقد مات مسموماً ، ولكن اليد التى دست له السم هى يد دائه .

حماه — مهدى الجم الطرابلسى